محمد خليل قاسم

«أنا مصرى وفى مصريتى
ينطوى أمسى وينساب غدى
أنا مصرى وفى مصريتى نبع
أحلامى ومثوى جسدى»
محمد خليل قاسم

أى خيط سحرى يربط اثنين كى يصبحا صديقين؟ أقصد صديقين صداقة حقيقية. من بين المئات والألوف يلتقيان يتقاربان يتآلفان ليصبحا أقرب وأوثق علاقة.. لو اكتشفنا هذا الخيط السحرى لأمكننا أن نكتشف لغز الحب.

أقول هذا لأن حالتى مع محمد خليل هى كذلك، منذ اللحظة الأولى للقائنا صدر فى قلب كل منا قرار سحرى بأن نصبح صديقين.

ونبدأ حكايته. الأب تاجر صغير فقير فى بلدة «قتة» النوبية. زبائنه نساء وأطفال هاجر رجالهم شمالا إلى القاهرة ليعملوا هناك بوابين وخدما. لا نقود فى القرية. وربما وجدت أسر لم تر النقود فى حياتها. هناك النخيل، بلح يصبح تمراً، يقدمون أكوام التمر للتاجر ليبيعها فى أسوان ويحصل على ثمن ما اشتروه طوال العام، وكالعادة يتعلق حلم الأسرة بأن يتعلم محمد ويصبح أفنديا. ومن المدرسة الإلزامية إلى مدرسة عنيبة الابتدائية حيث تفوق على الجميع وتفوق أكثر فيما كان ينسجه من شعر جذل.

وأمضى مع حواراتى معه: «ظللت فى النوبة لم أغادرها قط حتى تحتم أن أسافر إلى أسوان لأمتحن الشهادة الابتدائية. هناك فى أسوان عشت منبهراً، رأيت أشياء كنت فقط أرى صورها فى كتاب المطالعة». ويحصل على الابتدائية متفوقا، ولكى يواصل تعليمه يجب أن يرحل إلى القاهرة. وبالطبع إلى منزل خاله (كان طباخا لدى أسرة كابتن هون صاحب إسطبل لخيول السباق بالمطرية)

ذهب ليقدم أوراقه إلى ناظر مدرسة القبة الثانوية. أمسك الناظر بالأوراق وألقى نظرة فاحصة على الفتى الذى يقطر فقرا، ملابسه قديمة ولعلها ليست على مقاسه وحذاؤه قديم إلى درجة مخجلة. ولعل الفتى لمح بذكاء تردد حضرة الناظرة فى قبوله، فارتجل عدة أبيات من شعره. وأدرك الناظر أنه أمام شاعر حقيقى. ويمضى سنوات الثانوية سريعا ومتفوقا وإلى كلية الحقوق. وهناك انطلق إلى العالم الرحب. التقى صديق الطفولة زكى مراد وتعرفا إلى عبده دهب وانضما إلى منظمة الحركة المصرية للتحرر الوطنى. وفى هذا الزمان التقى الفتاة التى أحبها وظل طوال حياته يحبها، ويحكى لى: «التقيت بها فى مترو مصر الجديدة، الحب غمرنا سريعا وكثيفا، عشنا أجمل أيام ولكى لا أخدعها أخذتها من يدها إلى جروبى مصر الجديدة وأقبل السفرجية يسلمون على قلت لها: هؤلاء أقاربى، نحن نوبيون أى نحن فقراء. لم تنطق وسحبتنى من يدى إلى أحد شوارع مصر الجديدة حيث محل لمسح الأحذية وأشارت لاثنين منهمكين فى مسح أحذية الزبائن وقالت هذا أبى وهذا عمى، وتعمق حبنا أكثر فأكثر».

ويقول فى أسى، وأكاد ألمح الدموع فى عينيه: «الزمن والنضال والسجن والمطاردة والهروب فرقت بيننا، لكننى لم أزل أحلم بها كل ليلة». وكان له حبه الآخر.. الشعر: «كان طموحى أن أصبح شاعرا كبيرا وقرأت وحفظت وكتبت وترددت على أندية شعرية لألقى فيها قصائدى وأتلقى إعجابا حقيقيا»، ويصمت ثم يضيف: «أن تكون شيوعيا تصبح كراهب، تترك كل قديمك. كل شىء الأسرة والدراسة والكلية وكل هواية.. وكل شىء إلا معتقدك الذى تهب له كل شىء»، ومع ذلك فقد ظل يقطر شعرا يشدو به فى لحظات المتعة. وينشر فى «أم درمان» قصائد عدة منها:

نحن نبنى لأن فينا جياعا
يعمرون الكهوف بين الجبال
نحن نبنى لأن فينا عراة
يخدمون الثراة فى أسمال
نحن نبنى لأن فينا رضيعا
قارب الموت مستبد السعال
نحن نبنى وما بنى الشعب باق
أبد الدهر ساخرا بالزوال

ويمضى نضاله اليومى الذى ينسيه كل شىء ليصبح واحدا من أهم كوادر المنظمة. وفى عام ١٩٤٨ قبض عليه وحوكم بالسجن خمس سنوات، ويفرج عنه فى ١٩٥٣ حيث تكون الأزمة قد اشتعلت بين «حدتو» وثورة يوليو، فيختفى ليواصل النضال من جديد. واختفى فى بيت واحد مع زكى مراد ومحمد شطا. ويخرج هو من المخبأ ليأتى إلى بيتى.

أبلغنى أحد الزملاء أن على أن أذهب إلى مقابلة أحد الرفاق القياديين. وذهبت فى موعد مسائى شديد البرودة وتوقفت سيارة قديمة مطفأة الأنوار، كان المطر ينهمر فوق رأسى ورأيت شبحا يهبط من السيارة شخص مربع متجهم أسمر. شفتاه نافرتان وكأنهما رسمتا بشكل خطأ، وتركونى معه. ووجدت نفسى فى قبضة القادم الجديد. المطر يغمرنا وهو يضع تحت إبطه لفافة من ورق الجرائد. أشرت إلى تاكسى فإذا به يلدغنى فى يدى هامسا: «من أيام (ح.م) تعلمنا ألا نشير إلى أول تاكسى، فقد يكون الأمن قد أرسله لنا». وانتظرت بملل والبلل يغمرنى وهو ثابت مكانه كصخرة أسوانية راسخة وعينه تتفحصنى من حين لآخر. ثم أشار لتاكسى وذهبنا إلى منزلى، فتح اللفافة وأخرج منها بيجامة بنصف كم ومهلهلة. فى صمت فتحت دولابى وأحضرت بيجامة كستور وأشعلت المدفأة، وعندما شعر بالدفء ابتسم وقال: «مش حنحتفل؟ كل سنة وأنت طيب النهارده ٧ نوفمبر عيد الثورة البلشفية». وحضر محمود العطار زميلى فى السكن وأحضر لنا طعاما وصل من المنصورة، وأخرجت كيسا من التفاح وصلنى من هناك أمسك بتفاحة، وقال تتصور انها أول مرة أمسك تفاحة، والتهمها. وفيما نتمدد أنا وهو على سريرى واللحاف الثقيل يثقل علينا بالدفء الحقيقى، تذكرت قصيدة لمحمد خليل قاسم حفظتها وأنا فتى صغير السن فى معتقل الهايكستب. لم أره هناك، هو رحل إلى الطور وترك قصائدة فى ذاكرة الرفاق. وأنشدت بيتين من قصيدة قالها فى احتفال المعتقلين بذات الذكرى.

«وإذ نحتفل اليوم به.. ها هنا بين هاتيك الصحارى

فغدا يحتفل الشعب به.. فى النوادى فى النقابات جهارا»

وسألنى عن القصيدة؟ قلت لمحمد خليل قاسم، وسأل هل تعرفه؟ قلت: لا.

قال: أنا. وتعانقنا وأمضينا ليلة احتفالية جميلة.

لنبدأ معا رحلة صداقة طويلة ممتعة..

* * *

«قل رأيك، وحارب الخطأ بقسوة، حتى ولو غضب منك الجميع، فأى مناضل هذا الذى لا يستطيع أن يواجه العالم كله برأيه؟».

محمد خليل قاسم

(فى حوار استحثنى فيه أن أنتقده بصراحة)

ومنذ اللحظة الأولى لسكناه معى هاربا من الأمن بدأ جلسات حوار ونقد شديد لأسلوبنا فى العمل عندما عملنا وحدنا زمنا نعارض «الدكتاتورية العسكرية» بعيدا عن إشراف قيادة لا نجد سبيلا للاتصال بها، كان نضالنا يتلخص آنذاك فى الكتابة على الجدران وكان الأمر يتطلب حذرا وشجاعة. لكنه دقق فى الشعارات المكتوبة ووجد أخطاء وشدد فى انتقادها، وفحص أساليب تحركنا وكيفية تأمين عملية الكتابة، وانتقدها بعنف: وبدوت وأنا الذى كنت أزهو بأننى مسئول كل هؤلاء المناضلين الشبان، كأننى تلميذ فى محراب شديد القسوة، احتملت النقد، فقد أحببت فى الرجل إخلاصه وصراحته وصرامته، واحتفظت لنفسى سرا بالحق فى نقده إن أخطأ.. وبعد أن تفرقت بنا السبل، هو غادرنا إلى منزل آخر، ثم قبض عليه ليرسل إلى السجن الحربى وأنا قبض على لأذهب إلى سجن مصر، التقينا. وكان «بيان السجن الحربى» وهو بيان أصدره رفاقنا القادة السجناء يحيون فيه تقارب عبدالناصر مع الاتحاد السوفيتى، وقام كل السجناء فى سجن مصر بهجوم كاسح على القادة الذين أصدروا البيان، وتعالت الاتهامات بالخيانة، أنا رفضت البيان ورفضت التخوين، وجلست إليه قلت لدى انتقادات شديدة وأتردد فى قولها، فهاج محرضا إياى أن أواجه العالم كله بما أعتقد أنه صائب.. وهكذا تعلمت منه درسا ثمينا، وتتفرق السبل مرة أخرى، هو إلى سجن طرة وأنا إلى سجن القناطر، لكننا وإذ نلتقى نجد صداقتنا وقد نمت أكثر وأكثر.. وإذ استقر بنا المقام فى سجن جناح تتلمذت تماما على يديه، أمرنى أن أتعلم الإنجليزية وبذلت جهدا خارقا، وأمرنى أن أخوض غمار الترجمة وأعطانى مقالا من صفحتين ووجد فى الترجمة أكثر من مائة غلطة، وأمر بإعادة الترجمة وأعدتها، ثم أعدتها، ثم بدأت الترجمة تستقيم بقليل من الأخطاء، وأمرنى أن أحفظ الشعر وحفظت، وأمرنى أن أجرب كتابة التحليل السياسى وفعلت، باختصار كان يقوم بصناعتى، وفى هذه الأثناء صدر قرار بفصل كل السجانين الذين لا يتعلمون القراءة

والكتابة، إما الحصول على شهادة محو الأمية أو الفصل، السجانون كانوا فى الأغلب متوحشين وعند الأوامر يضربون بقسوة وكأنها خصومة شخصية، وأكثرهم عذبنا فى سجن القناطر وأبو زعبل وطرة ولهذا ارتفعت نغمة وسطنا بألا نعلمهم، نتركهم للفصل فهم أعداء طبقيون، هو لقننى درسا آخر.. هم مساكين مقهورون مثلنا وما أسهل أن نكسبهم إلى صفنا، وافتتح فصلا وفصلا ثانيا، والسجانون يأتون لفترة ويرحلون، وكل من يرحل يكون قد تعلم.. وأسماه السجانون «حضرة الناظر» وظل هذا اسمه حتى أفرج عنا، والمثير للدهشة أن مصلحة السجون اعترفت بمدرسة «حضرة الناظر» وبالشهادة التى يوقعها كشهادة رسمية لمحو الأمية، ونفترق لنلتقى مرة ثانية فى سجن المحاريق، هو أصبح قائدا ناضجا تماما وأنا تعلمت كثيرا من دروسه الجادة والقاسية، كان العمر يتقدم بى وبه، وأحسسنا بأن العمر يتسرب من بين أيدينا، وبدأنا فصول تقوية مكثفة، كل منا يستحث الآخر، قرأنا دواوين شعر عديدة، حفظنا قصائد بلا حصر، قرأنا القرآن عديدا من المرات ثم سألته لماذا لا تكتب مذكراتك؟ وتناقشنا فى لماذا؟ وكيف؟ ومتى؟ واستقر الأمر على أن يسجل تاريخ النوبة فى رواية، وبدأ فى كتابة «الشمندورة» لكن المشكلة أنه لا أوراق، فالكراسات شحيحة، وبدأ الكتابة على ورق شكاير اللبن الجاف، وهى شكاير تشبه شكاير الأسمنت، وفصلا فصلا أقوم أنا بنسخها على ورق البافرة بخط دقيق جدا، وفيما هو يكتب كلفنى ترجمة كتاب «أضواء على الهند الصينية»، ثم هو يراجع الترجمة فصلا فصلا، وأنا أكتب له على البافرة فصلا فصلا، وعندما انتهيت من ترجمة «أضواء على الهند الصينية» قال مكشرا عن أنيابه: «ترجمت كتابا سياسيا لكن الترجمة الحقيقية هى ترجمة الأدب»، وأحضر لى رواية «الأرض» لإميل زولا، وانهمكت فيها وانهمك هو فى «الشمندورة» وفى مراجعة الترجمة، وانتهت كتابة «الشمندورة» وبدأت مشكلة كيف؟ وأين؟ كيف نهربها خارج السجن؟ وأين تحفظ؟ وتم تهريبها إلى ليلى الشال (ولم نكن قد تزوجنا بعد) وهو يعيش حالة قلق دائم، فماذا لو أنها ضاعت؟ وأطمئنه، وأعيد طمأنته وهو لا يطمئن، حتى أفرج عنا وسلمت لفافات البافرة له، لكن نظره الضعيف لم يلتقط الأحرف الصغيرة، فكتبتها له فى كراسات، وصدرت «الشمندورة» لتحدث ضجيجا، وتذاع مسلسلا فى «صوت العرب»، وتزهو بها كل الأندية النوبية فى ندوات لا تنتهى، أما هو فقد خرج من زنزانة السجن الضيقة إلى غرفة أصغر معلقة فوق سطح فى تجمع نوبى بالقرب من سوق

الجمال فى إمبابة، زرته هناك عندما قرر أن يتزوج، قدمت له هدية لم أجد لها مكانا توضع فيه، الغرفة لم تحتمل المروحة التى حملتها معى، أخته فرحت جدا بها، أما هو فقد اكتفى بابتسامة، فعتاد الغرفة مجرد سرير وحصيرة ووابور جاز وفقط، وحمام مشترك، وعندما صدر قرار الحل زارنى، ارتمى فى أحضانى باكيا، قائلا: «لم أبك عندما مات أبى ولا عندما سمعت بموت أمى، أما أن يموت الحزب فأنا يتيم حقا»، وفيما يقترب يوم زواجه قرر القلب الجميل أن يتوقف، أخته احتارت، جارتهم أحضرت بصلة كسرتها ووضعتها قرب أنفه لم يعد يتنفس.. فالفقراء يموتون غدرا ودون علاج.

رحل محمد خليل قاسم لأفقد أستاذى وصديقى.. وهو صديق لا يتكرر.